492.7094
J178lA

اللغة العربية في اوربا

بقلم

الفيكونت فيليب دي طرازي

مؤسس دار الكتب اللبنانية في بيروت

والعضو في عدة مجامع علمية شرقية وغربية

نشرت تباعاً في مجلة « المسرة »

67440

مطبعة القديس بولس — حريصا (لبنان) ١٩٤٦

اللغة العربية في اوربا

ثروتها ومكانتها[1]

اعتناء الاوربيين باذكار الكتب العربية

١ً ظهور اللغة العربية في اوربا منذ القرون الوسطى

يرتقي عهد اهتمام الاوربيين باللغة العربية الى القرن العاشر للميلاد . فمن ذلك الحين اخذوا يحشدون في خزائنهم ما ألّفه العرب في الطب والفلسفة والرياضيات والطبيعيات والكيمياء والنجامة والادب واللغة . وجعلوا يترجمونها الى لغاتهم ولاسيما الى اللغة اللاتينية التي كانت وما برحت لغة العلم عندهم . ثم ازداد هذا الاهتمام على اثر احتكاك الافرنج بالشعوب الشرقية في اثناء الحروب الصليبية (١٠٩٦–١٢٩١) . فكانوا يبتاعون ما تقع عليه عيونهم من المخطوطات الشرقية لاعتبارهم اياها من الآثار القديمة الغريبة الشكل واللسان والمجهولة في بلادهم

ومن الادلة الراهنة على ذلك ان لويس التاسع ملك فرنسا (١٢٢٦–١٢٧٠م) لما عاد من الحرب الصليبية نقل معه من مدينة دمياط مخطوطات عربية وقبطية زيّن بها خزائن قصره . واحتذى حذوه كثيرون من امراء الفرنسيس واغنياء حجّاجهم الذين رافقوا الملك في زيارته الاماكن المقدسة[2]

زد على ذلك ان علماء الاستشراق وقناصل دول الغرب وتجار الافرنج الذين أمّوا البلاد الشرقية في آونة مختلفة استفادوا من جهل سكانها وقلّة اكتراثهم لذخائر الاجداد . فابتاعوا ما تيسر لهم من تلك الكنوز الكتابية واغنوا بها خزائن اوربا ومتاحفها

---

(١) بعض فصول من كتاب « خزائن الكتب العربية في الخافقين » وهو كتاب يقع في ثلاثة مجلدات ضخمة لا تزال مخطوطة

(٢) علاقات ملوك فرنسا بملوك العرب، تأليف فيليب دي طرازي : ص ٤–٥

وخلاصة القول أنَّ صرعى الكتب وعشّاقها في الغرب اقاموا عملاء تسوّقوا لهم المخطوطات باثمان غالية من جميع انحاء الشرق . على أنَّ من أُتيح له أن يتفقد دور الكتب الشهيرة في لندن وباريس وفيناً وروما والفاتيكان وفلورنسا وميلانو ومجريط (مدريد) وبرلين وليبسك ومونيخ ومنشن وبون وغوتنجن وغوطا وبلجكا وكوبنهاغن وأوبسالا ولينغراد الخ لا يتمالك من الاعجاب مما أفرغ الافرنج من الجهود وما انفقوه من الاموال لاكتناز تلك الثروة العلمية التي لا يعادلها ثمن

٢ ترجمة كتب الفلسفة والطب العربية وتدريسها في جامعات اوربا

شاعت اللغة العربية في القرون الوسطى بين علماء اوربا لكثرة الاقوام المتكلمين بها ولشهرة فلاسفة الاسلام بينهم كابن رشد وابن سينا وابن زهر والفارابي والرازي . فظلّت تدرّس فلسفتهم وطبهم في جامعات اوربا حتى السنة ١٦٥٠ للميلاد . وعثر داثيك في مدرسة مونپليه على ترجمة القرآن في اللغة اللاتينية بقلم الاخ دومينيك جرمان الصقلي فنشرها في المجلة الآسيوية[١]

وفي السنة ١١٣٠ م تأسست في طليطلة كلية لترجمة الكتب العربية الى اللاتينية برعاية الاسقف ريموند . وقام بعده جيرار دي كريمونا سنة ١١٧٠ م فترجم كتب الرازي والزهراوي وابن سينا . وما كان القرن الخامس عشر حتى بلغ عدد الجامعات في اسبانيا ست عشرة جامعة . فكانت قرطبة بمكتبتها العامرة موضوع إعجاب الاوربيين . وألقت جامعة اشبيلية دروسها باللغة العربية

ولم تكن صقلية وجنوب ايطاليا بأقلّ حظاً من اسبانيا . ففي القرن الحادي عشر للميلاد تأسست جامعة سالرنو التي سيطر عليها الفكر العربي مدة قرنين . وكان لقسطنطين الافريقي اليد الطولى في ادارتها . ثم قامت جامعة پالرنو ومونپليه وتلتها جامعات باريس وبولونيا واكسفورد وبادوا وغيرها وعُنيت هذه الجامعات كلها بتدريس العلوم العربية فأثارت في الغرب ثورة فكرية جديدة أنارت سبل اوربا . وفتحت امامها ابواب ثروة علمية استفادت منها فائدة عظمى[٢]

ومن اعظم المستشرقين الذين تفانوا في نشر اللغة العربية وتشويق اهل

(١) المستشرقون بقلم نجيب العقيقي ص ٣١

(٢) مآثر العرب في العلوم الطبية للدكتور سامي حداد ص ٦٩-٧٠

اوربا الى درسها كان «رامونـدلول» الذي ادرك اوائل القرن الرابع عشر للميلاد . فهو اول من شعر بخطورة اللغـة العربية في اوربا فاحكم اصولها وعشق آدابها . بل هو اول من اجتهد في تدريسها على رجاء ان تكون وسيلة قوية للتفاهم بين الشرق والغرب[1]

٣ حديث الرحالة ابن جبير عن العروبة في بلاط ملوك صقلية

بعـد تقلُّص ملك العرب عن صقلية في القرن الحادي عشر للميلاد لبثت لغتهم شائعة فيها حتى في قصر الملك نفسه . فان الملك روجه الثاني (١١٠١–١١٥٤ م) وهو مثقَّف بثقافة العرب اطلق لهم الحرية في اقامة فروضهم الدينية وضمّهم الى بلاطه . واستدعى بعض العلماء من المسلمين كالشريف الادريسي (١٠٩٩–١١٦٤ م) ليستفيد من معارفهم المتنوعة[2] . وأضـاف شارة محمد الى شارة المسيح في ضرب نقوده . فنقش على احدى صفحتيها «لا إله إلا الله محمد رسول الله» . وبعد روجه قام الملك غليوم الاول (١١٥٤–١١٦٦ م) فتأثره واتخذ العربية لغة لاهل بلاطه[3]

ولما ارتحل ابن جبير الى صقلية في عهد ملكها غليوم الثاني (١١٦٦–١١٨٩ م) وصفه بقوله : «وشأن ملكهم هذا عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين . . . وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن اليهم في احواله والمهمّ من اشغاله . حتى ان الناظر في مطبخته رجل من المسلمين . وله جملة من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم . . . وليس في ملوك النصارى أترف في الملك ولا أرفه منه . وهو يتشبه في الانغماس في نعيم الملك وترتيب قوانينه ووضع اساليبه وتقسيم مراتب رجاله وتفخيم امّبهة الملك وإظهار زينته بالملوك المسلمين . . . ومن عجيب شأن المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية وعلامته على ما أعلمنا به احد خدمته المختصين به «الحمد لله حقّ حمده» . وكانت علامة ابيه «الحمد لله شكراً لأنعمه»[4]

---

(١) رامونـدلول وتعزيز اللغة العربية في اوربا بقلم ز . بلاشير (مجلة دمشق : مجلد ١ عدد ٦ سنة ١٩٤٠ ص ١٩ – ٢٤)

(٢) مجلة دمشق م ١ ع ٦ سنة ١٩٤٠ ص ١٩

(٣) المستشرقون ص ٣٢

(٤) رحلة ابن جبير ص ٣٠٨–٣٠٩

اما فردريك الثاني امبراطور النمسا (١١٩٤—١٢٥٠م) فقد شمل بحمايته جامعة بولونيا الشهيرة في ايطاليا . فوهبها طائفة من المخطوطات باللغة العربية ولاسيما كتب الطب . هكذا تسرّبت الى منابر بولونيا فلسفة ابن رشد كما تسربت قبل ذلك الى منابر جامعة بادوا

واحتذى فردريك الثاني المشار اليه بمثال الفونس التاسع صاحب قشتالة (١١٥٨—١٢١٤م) فجمع اليه المترجمين من العرب وفريقاً من الافرنج المثقفين بالعربية فبلغ ما ترجموه ٣٠٠ مجلد الى اللغة اللاتينية لغة العالم ما عدا ما نقلوه الى غيرها . وما مرّ القليل حتى اصبحت جزيرة صقلية في ذلك العصر معقل العربية المنيع . وغدا ملوكها يحسنون صلة العرب فقرّبوا علماءهم وجمعوا في بلاطهم حلقة من شعرائهم وجعلوا من العربية لغة الادب العالي . وخلاصة القول ان ملوك صقلية وامراءها كانوا عرباً في ثقافتهم وحياتهم وطرق حكمهم ولباسهم وقصورهم ومعيشتهم وحفلاتهم[1]

٤ً اندماج الفاظ عربية في لغات الافرنج وفي معاجمهم

لم يغمض ملوك الفرنسيس عن الأعتناء باللغة العربية بل نهجوا في تعزيزها نهج ملوك اسبانيا وصقلية . فانشأوا في باريس عاصمتهم مدرساً عاماً لتعليمها منذ اواسط القرن الثالث عشر للميلاد[2] . هكذا اندمجت في لغة الفرنسيس وفي سائر لغات اوربا الفاظ عربية كثيرة ولاسيما في العلوم البحرية والطبية . وغير خافٍ أنّ الطب العربي كان أساس علم الطب عند الفرنسيس اخذوه مع كثير من الفاظه . وأثبت المستشرق العلامة الاب هنري لامنس ان اللغة الفرنسية استعارت نحو ٩٠٠ لفظة من اللغة العربية واستعملتها وادخلتها رسمياً في معاجمها[3]

ونشر المستشرق فرنكل (١٨٥٣—١٩٠٩م) الالماني استاذ اصل اللغات في كلية برسلو تآليف وبحوثاً خطيرة حدّد فيها الكلمات العربية الدخيلة على اللغات الاوربية[4] . وألّف كذلك كتاباً في الالفاظ التي اتخذها العرب من السريان فدقّق وعمّق وحقّق[5]

---

(1) Dozi et de Gœgé, *La Préface de description de l'Afrique et de l'Espagne*, par Edrici, page 3.

(٢) القديم والحديث بقلم محمد كرد علي : ص ٢٨ طبع القاهرة سنة ١٩٢٥

(3) H. Lammens, *Remarques sur les mots français dérivés de l'Arabe.*

(٤) المستشرقون : ١٦٣—١٦٤

(٥) القصارى، للمطران اقليميس يوسف داود : ص ٨٢

٥ انصراف علماء الاستشراق الى نشر أهمّ الكتب العربية

ما اكتفى علماء الاستشراق في اوربا بدرس اللغة العربية واذخار كتبها لكنهم انصرفوا منذ عهد اختراع الطباعة الى طبع الشيء الكثير من تواريخ بلاد العرب وجغرافيتها وتراجم رجالها واصول شعوبها . هكذا تيسّر للاوربيين ان ينشروا أهمّ تلك الكتب في مختلف العلوم العقلية والنقلية . ومن جملتها أول طبعة من القرآن باللغة العربية نشرها بابا غانيني في مدينة البندقية . ثم نشر أندريا أريغابن من مانتو اول طبعة للقرآن باللغة الايطالية[1] . وما عتم ان طُبع هذا المصحف في سائر لغات اوربا كالانكليزية والفرنسية والاسبانية والالمانية والهولندية والروسية واليونانية واللاتينية والبوهيمية والمجرية والدنماركية والبولونية والقشتلانية والبرتغالية والروتانية والبلغارية والصربية والالبانية والاسوجية

وفي السنة ١٦١٧ نشرت مطبعة ليدن بهولندا قصة يوسف البار من القرآن . وهو اول كتاب ابرزته المطابع مضبوطاً بالشكل الكامل[2] . ونشرت مطبعة اكسفورد سنة ١٧٤٣ السيرة النبوية من تاريخ ابي الفداء[3] . وقد ذهب بعض المؤرخين الى ان ما طبع من مؤلفات اسلافنا في اوربا واميركا على يد المستشرقين من اهل تينك القارتين بلغ اضعاف اضعاف ما طبعوه بسائر لغات الشرق . ذلك كله يؤيّد مبلغ عناية الافرنج بلغتنا وحضارتنا وتاريخنا وعلومنا[4]

واثبت الاب لويس شيخو في كتابه « اطرب الشعر واطيب النثر » ما يلي[5] : « ان المطبوعات العربية وحدها التي تصدر في انحاء اوربا فضلًا عن بقية اللغات الساميّة تُنيف كلّ عام على الالف والثلاثمئة بين التآليف الصغيرة والكبيرة

---

(١) غرائب الغرب لمحمد كرد علي جزء ١ ص ٢٦٤-٢٦٥

(٢) المشرق م ٣ سنة ١٩٠٠ ص ٨٣

(٣) المشرق م ٣ سنة ١٩٠٠ ص ٨٤

(٤) القديم والحديث لمحمد كرد علي ص ٢٦

(٥) اطرب الشعر واطيب النثر ٢ ص ٢٠٩

الحجم ذات المواضيع المتوسطة والخطيرة . وذلك بـلا مراء اقوى دليل يُثبت ما في علماء الغرب من الكَلَف بنشر آثار لغتنا »

تعزيز البابوات للغة العربية

١ً تضلّع البابا سلوستر الثاني من لغة العرب وفلسفتهم

كان بابوات رومة في طليعة ملوك اوربا بانصرافهم منـذ القرون الوسطى الى تعزيز اللغة العربية وتدريسها ونشرها وقد سبق احدهم البابا سلوستر الثاني (٩٩٩–١٠٠٣ م » انه قصد الاندلس طلباً للعلم عندما كان راهباً باسم جربرت (Gerbert) . وقد تخرَّج في مدارس اشبيلية وقرطبة حيث اكبَّ على تحصيل علوم العرب واحكم فلسفتهم وتعمّق فيها ثم شخص الى رومـة ففاق اقرانه بعلمه ولمع بينهم بزاياه السامية . ومـا كاد يجلس على كرسي بطرس برومة حتى امر بانشاء مدرستين عربيتين : الاولى في ايطاليا مقر خلافتـه والثانية في ريمس من اعمال فرنسا وطنه[1] . ومما يؤثر عنه انه ابدل الارقام الرومانية المستعملة حتى ذلك العهد بالارقام العربية[2] وادخلها الى اوربا

وقد اتى البابا سلوستر الثاني على ذكر « الصِّفر » العربيّ في رسالة وجهها الى أوثون الثالث امبراطور جرمانيا (٩٨٣–١٠٠٢ م) قال : « اني اشبهك بالرقم الاخير من الاعداد البسيطة العشرة . وهو الذي يزداد قيمة بوضع اعداد اخرى عن يساره

٢ً تنشيط البابوات الى اقتباس العربية

راح البابوات في القرون الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر يحببون الى قصّادهم وسفرائهم ورسلهم ورهبانهم تعلّم اللغة العربية وتدريسها في المعاهد ترويجاً

---

(١) المستشرقون : تأليف نجيب عقيقي . ص ٤٠

(٢) مآثر العرب في العلوم الطبية : بقلم الدكتور سامي حداد . ص ٦٨ – ٦٩

(٣) جريدة « آسيا » في بيروت : لتوفيق وهبة : مجلد ١ عدد ٦٣ في ٢٧ ايلول سنة ١٩٤١

لخطتهم الكاثوليكية . فتيسر لهم بتلك الوسيلة ان يبعثوا وفوداً من اهل الذكاء والحصافة ممن خلّفوا لنا مذكرات يومية عن رحلاتهم في الاشتغال بين امم الشرق

من ذلك ان مجمع مدينة ڤينا المنعقد سنة ١٣١١ برئاسة البابا اقليميس الخامس (١٣٠٥ — ١٣١٤ م) قرّر ان تؤسس دروس عربية وعبرية وسريانية في رومة على نفقة الحبر الاعظم وفي باريس على نفقة ملك فرنسا . اما في اكسفرد وبولون وسلمنكة فعلى نفقة الرهبان . وكان يقصد بذلك تخريج وعّاظ يطوفون الامصار الشرقية لتثقيف شعوبها ونشر الحضارة العربية بين ظهرانيهم . ومما يبرهن على ان اللغة العربية كانت تدرس في كلية باريس براءة للبابا يوحنا الثاني والعشرين (١٣١٦ — ١٣٣٤) م) تاريخها سنة ١٣٢٥ حتم فيها البابا على سفيره هنالك ان يراقب دروس اللغة المذكورة[1]

واول من لبى نداء الحبر الاعظم رهبان مار فرنسيس ثم رهبان مار عبد الاحد (الدومينيكيون) فانشأوا دروساً من هذا القبيل في اديارهم وقد نبغ بينهم رهط من الاساتذة الذين درّسوا دروساً استندوا في شروحها الى مؤلفات مترجمة عن العربية واستعانوا في ذلك بكتب ابن سينا والفارابي والغزالي . وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر فتحت الرهبنة اليسوعية مدرسة للغتين العربية والعبرية تولّى التعلم فيها يوحنا اليانو الشهير[2] . ومنذ ذلك العهد امتدت حركة علم المشرقيات الى اغلب انحاء اوربا واخذت تنمو وتزداد بتعاقب الايام . واعتبر كثير من العلماء والادباء تعلّم اللغة العربية من دواعي الافتخار[3]

عصر البابا لاون العاشر وافتتاحه اول مطبعة عربية في العالم

دالت دولة الروم الشرقية بسقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ بيد الاتراك . فهجرها الادباء والعلماء والفنّانون ونزح معهم كثير من النصارى ميمّمين بلاد ايطاليا حيث تمتعوا بالحرية والطمأنينة . وهبّت حينذاك في ارجائها نهضة ادبية تجلّت

---

(١) الآداب العربية في القرن التاسع عشر : للاب لويس شيخو : ج ١ ص ١٢

(٢) الآداب العربية في القرن التاسع عشر : ج ١ ص ١١ — ١٢

(٣) غرائب الغرب : تأليف محمد كرد علي : ج ١ ٢٦٢ — ٢٦٣

مظاهرها بترويج الدروس الشرقية . وكان للبابا لاون العاشر (١٥١٣ — ١٥٢١م) يد طولى في تلك النهضة الشريفة حتى استحق ان يلقّب عصره بعصر لاون العاشر . ومن مآثره الخالدة انه احتفل في السنة ١٥١٤ بافتتاح اول مطبعة عربية كان سلفه يوليوس الثاني (١٥٠٣ — ١٥١٣) قد اسسها في مدينة خانو على ساحل بحر الادرياتيك

٤ لاون العاشر والرحالة لاون الافريقي

في السنة ١٥١٧ قبض القرصان في البحر الابيض المتوسط قريباً من جزيرة جربا، على ساحل تونس، على رحالة اندلسي يقال له الحسن بن محمد ابو وزّان الغرناطي . فاستأسروه وباعوه بيع الرقيق في بلاط البابا لاون العاشر . وما عتم ان ادرك البابا ذكاء الاسير ووافر علمه فقرّبه اليه واكرمه وعيّن له راتباً . ثم عرض عليه النصرانية فانضمّ اليها . ووقف البابا عرّاباً له في العماد وسمّاه باسمه « لاون » فعُرف من ذلك الحين باسم « لاون الافريقي »

وانتهز الرحالة الافريقي فرصة اقامته في رومة فتعلم اللغتين اللاتينية والايطالية وألّف فيهما . ودرس عليه اللغة العربية فريق من رجال الفاتيكان نذكر منهم الشاعر الشهير الكردينال اجيديو انطونيني (١٤٨٠ — ١٥٣٢) اسقف فيتربو

وقد كتب لاون الافريقي اخبار رحلته باللغة العربية حفظت نسختها الخطية في مكتبة فينشنسوبينلي ولا يُعرف الآن مكانها . غير ان مؤلفها ترجمها الى اللغة الايطالية باسم Navigationi e Viaggi ثم ترجمت الى اللاتينية ونشرت مراراً ونقلت عنها الى الانكليزية والفرنسية والهولندية وغيرها . ويقال ان لاون الافريقي رجع بعد هذا الى مراكش وعاد قبل وفاته الى دينه القديم[1]

٥ انشاء البابوات مطبعة عربية في رومة

بعدما أسس البابوات جمعية انتشار الايمان في رومة فكّروا ان ينشئوا مطبعة يضمونها الى تلك الجمعية وينشرون فيها الكتب المفيدة . وقد احرزت تلك

(١) مجلة الهلال : مجلد ٢١ ص ٢٣٩

المطبعة بهمتهم شهرة واسعة بين مطابع الغرب . وكان للغة العربية بينها الشأن الاول والنصيب الاوفر . وما عدا مـا نشرته تلك المطبعة من الكتب بلغات اوربا فانهـا اصدرت كتباً جمّة باللغات العربية والسريانية والعبرية واليونانية والارمنية والقبطية والحبشية والكرجية والهندية والفارسية والتركية والكردية اضف اليها الروسية والسلافية

٦ بعثات بابوية الى مشترى مخطوطات شرقية

سعى البابوات سعياً حثيثاً في القرون الغابرة ليحرزوا مـا استطاعوا من المخطوطات ويغنوا مكتبة الفاتيكان . واخذوا منذ القرن الخامس عشر خصوصاً يواصلون تلك المساعي الطيبة كالبـابا سكستس الرابع (١٤٧١ — ١٤٨٤) وبيوس الرابع (١٥٥٩ — ١٥٦٥) وبولس الخامس (١٦٠٥ — ١٦٢١) واوربانس الثامن (١٦٢٣ — ١٦٤٤) فجمعوا من الكنوز الادبيـة الشرقية كمية وافرة وانفقوا في اقتنائها اموالاً طائلة وكابدوا في نقلهـا وتنظيمها وتنسيقها اسهاراً متواصلة . هكذا اغتنت تلك المكتبة العظيمة وارتاشت احوالها بتآليف علماء الشرق على اختلاف اجناسهم واديانهم ولغاتهم وبلدانهم[1]

ومن اشهر البابوات الذين بذلوا الجهود لتعزيز اللغـة العربية اقليميس الحادي عشر (١٧٠٠ — ١٧٢١) . فانه وجّه عام ١٧٠٧ الى الشرق عالماً لبنانياً اسمه الياس السمعاني لابتياع مـا يعثر عليه من المخطوطات في لبنان وسوريا وفلسطين واديار مصر . وفي السنة ١٧١٥ كلّف الحبر الاعظم المشار اليه عالماً آخر لبنانياً هو يوسف شمعون السمعاني ان يرتحل الى المشرق ويجمع ما تيسر من المخطوطات العربية والسريانية والقبطية والحبشية . فنهض السمعانيان كلاهما بهمتيهما خير نهوض وأغنيا المكتبة الواتيكانية بما توفّقا الى جمعـه من التحف الكتابية

وفي السنة ١٧١٩ وجه البـابا اقليميس عينه كاهناً مارونياً قبرصي الأصل اسمه اندراوس اسكندر الى مدينة الموصل ليشتري مخطوطات عربية وسريانية

---

(١) المشرق : مجلد ١٠ سنة ١٩٠٧ ، ص ٢٥

تتعلق بالنساطرة . فظل هذا الكاهن النشيط شهرين كاملين ضيفاً في بيت القس خدر الكلداني (١٦٧٩ – ١٧٥٥) الذي بالغ في تكريم ضيفه وسهّل له جميع الوسائل للفوز بامنيته وفقاً لرغائب الحبر الروماني . وقد استخدمه البابوات ايضاً في اقتناء مخطوطات شرقية من اطراف مصر والشام وما بين النهرين . فجمع منها اندراوس اسكندر جانباً كبيراً نقله الى المكتبة الواتيكانية . ثم اشتغل مع السماعنة في طبع بعض تلك الكتب وحلّت وفاته نحو السنة ١٧٤٠[1]

وانتهج خلفاء البابا اقليميس الحادي عشر آثار سلفهم في جمع المخطوطات الشرقية على يد بعثات اوفدوها الى سورية ولبنان وفلسطين ومصر والعراق وما بين النهرين حتى اقصى بلاد فارس والهند . وكان رسل البابا يطوفون مدن الشرق والغرب ويشترون اندر المخطوطات فيدفعون ثمن بعضها ما يؤازي ثقله ذهباً[2]

وتبارى فريق كبير من الاكليرس الشرقي في اتحاف المكتبة الواتيكانية بمخطوطات قديمة نفيسة . نذكر منهم ابرهيم الحاقلاني الماروني († ١٦٦٤) الذي اهدى الى تلك المكتبة ٦٤ مخطوطاً نُقلت اليها بعد وفاته[3]

٧ قِدَم المكتبة الواتيكانية وثروتها

صرف البابوات كل الهمم منذ العصور الخوالي في تجميع الكتب الشرقية والغربية من انحاء المعمور . وتوفّقوا الى احراز عدد وافر من الطُرف القيّمة والتحف الغالية والصكوك والوثائق العتيقة . وضمّوها باجمعها الى المكتبة الواتيكانية التي بلغ عمرها زهاء ١٦٠٠ سنة[4] . واصبحت تُعدّ بكل حقّ شيخة المكتبات في انحاء العالم كله بل اغناها على الاطلاق بالمخطوطات القديمة[5]

---

(١) رحلة القس خدر الكلداني للاب لويس شيخو (المشرق ١٣ ص ٥٨٣ – ٥٨٦)

(٢) تقويم البشير : مجلد ٥٣ سنة ١٩٣٠ ص ٥٩

(٣) تاريخ الكنيسة السريانية : للخوري اسحق ارملة : قسم ١٧ فصل ٣ ص ٢٧٣ (هذا التاريخ تحت الطبع) وتاريخ سوريا للمطران يوسف الدبس : مجلد ٧ ص ٣٤٠-٣٤٢

(٤) الهلال : مجلد ٣٦ ص ٤٤٦

(٥) محاضرات المجمع العلمي العربي في دمشق : ج ١ ص ٦٦

ومع تمادي الزمان اصبح طول دهليز المكتبة الواتيكانية ٣٢٧ متراً تشتمل على مصاحف ثمينة مخطوطة باليد في اللغات اللاتينية واليونانية والسريانية والعربية والعبرية والفارسية والتركية وغيرها وغيرها . وفي جملتها رقوق مذهبة ومصوّرة وتآليف « ورجيل » وتصانيف « كيكرون » يرتقي عهد بعضها الى القرن الخامس للميلاد . وبينها ما سطرته ايدي الامراء والملوك والاحبار العظام وكبار العلماء[1]

ومن كنوز تلك المكتبة مجلدات نُسخت بشتى الخطوط وألوان الحبر ووشّحت صفحاتها باشكال التصاوير والزخارف ورُصّعت جلودها بالحجارة الكريمة . وبين اهمها «سفر الخليقة» مكتوب على رقّ غزال وهو اقدم ما عُرف من نوعه مزداناً بالتصاوير[2]

وبين طرائف المكتبة الواتيكانية سفر ثمين اكتشفه البحّاثة باديوني يوم كان ينقّب في زواياها . وهذا السفر هو مجموعة كاملة لانجيل مار يوحنا كتبت باللغة العربية في اوائل عهد المسيحية[3] . وكنا نود لو ان مكتشف هذا الاثر الفريد حدّد عهد نساخته بالتقريب . لاننا لسنا نعرف كتاباً عربياً نسخ بخط عربي في صدر التاريخ المسيحي . انما ذلك لا يقلّل من قيمة هذا الانجيل الاثرية لانه يُعتبر بلا ريب من اقدم المخطوطات العربية واغلاها

وغير خاف ان العرب المسلمين خلفوا كتابات كثيرة عن مصحف الانجيل وعن الآثار النصرانية في رومة . ومما رواه ياقوت الحموي نقلاً عن كتاب احمد ابن محمد الهمذاني المعروف بابن الفقيه ما يلي : « وفي رومة من الصلبان التي تخرج يوم الشعانين ثلاثون الف صليب ذهب . ومن المصاحف الذهبية والفضية عشرة آلاف مصحف[4]

٨ شغف رجالات البلاط البابوي بالكتب العربية

نسج على منوال البابوات رهط من الكرادلة ورجال الواتيكان وعززوا علم المشرقيات في محيطهم . نذكر منهم خصوصاً الكردينال فردريك دي مديسيس

(١) انفس الآثار في اشهر الامصار : ليوسف اليان سركيس ص ٧٠
(٢) زبدة الصحائف في سياحة المعارف : تأليف نوفل نوفل ٢٠٥
(٣) رسالة العمّال في حلب : مجلد ١١ عدد آذار ونيسان سنة ١٩٤٠ ص ٤
(٤) معجم البلدان : لياقوت الحموي ج ٤ ص ٣٣٥

في فلورنسا والكردينال بربارينو في پادوا . وكلاهما من رجالات القرن السادس عشر . واشتهر في الحقبة ذاتها احد اساقفة ايطاليا اغوسطينو جوستنياني مطران نابيو في جزيرة كرسيكا فانه اولع ولعاً مفرطاً بالدروس الشرقية ولاسيما العربية والعبرية . ومما يؤثر عن هذا الاسقف انه انفق ثروته في اقتناء ما لا يحصى من المخطوطات الخطيرة في اللغات العربية والسريانية والعبرية واليونانية[1] وفاق من تقدم ذكرهم الكردينال فردريك بورميو رئيس اساقفة ميلانو . فاسس المكتبة الامبروسية سنة ١٦٠٩ في كرسي ابرشيته وجهّزها بالوف المخطوطات العربية كما سنثبت ذلك في فصل لاحق . وسنثبت في الفصل عينه فضل الاب اخيل راتي الذي تولى ادارة المكتبة المذكورة ٢٢ سنة واضاف الى ثروتها العربية زهاء ٦٠٠٠ مخطوط . ولما ارتقى الى السدة البابوية باسم بيوس الحادي عشر (١٩٢٢–١٩٣٩) وجّه عناية خصوصية نحو المكتبة الواتيكانية فعزّزها بمصاحف عربية جمعها له من انحاء الشرق الكردينال اغناطيوس جبرائيل تبوني بطريرك السريان الانطاكي . ولشد ما كان ابتهاج الحبر الاعظم بتلك المخطوطات واعجابه بمضامينها فانه قضى بضعة ايام يقلبها ويطالعها في غرفته قبل ان يضمها الى سائر مخطوطات الواتيكان

٩ فضل آل مدسيس على اللغة العربية

لاسرة مدسيس النبيلة فضل جزيل على اللغة العربية وعلى نشرها في ديار الغرب . وممن اشتهر بين افرادها البابا لاون العاشر (١٥١٣–١٥٢١) الذي نوّهنا بذكره ثم البابا اقليميس السابع (١٥٢٣ – ١٥٣٤) فقد استنفدا جهوداً مشكورة في انشاء خزائن للمخطوطات الشرقية تعزيزاً للمكتبة الواتيكانية[2] .

وقام من اسرة مدسيس عينها الدوق فردينند الاول فابتاع طائفة من المخطوطات الشرقية باسم الحبر الاعظم . ثم انشأ على نفقته مطبعة معتبرة سمّاها « مطبعة آل مدسيس » ادّت خدماً جلّى للغة العربية بما نشرته من المؤلفات المفيدة

---

(١) غرائب الغرب : مجلد ١ ص ٢٦٥

(٢) غرائب الغرب : ج ١ ص ٢٦٥

ومن اهم التصانيف التي نشرتها مطبعة آل مدسيس : كتاب « الاناجيل » الذي طبعته عام ١٥٩١ مزيناً بتصاوير منقوشة على خشب . ونشرت في السنة ١٥٩٢ « كتاب مبادئ اللغة العربية » وكتاب « الكافية » وكتاب « نزهة المشتاق في ذكر الامصار والآفاق » للشريف الادريسي . ونشرت في السنة ١٥٩٣ « قانون ابن سينا » وفي آخره « كتاب النجاة » وهو مختصر الشفاء » . وطبعت في السنة ١٥٩٥ كتاب « تحرير اصول اوقليدس » لنصير الدين الطوسي[1] وهلمَّ جرًّا

جهود ملوك فرنسا في جمع المخطوطات العربية

١ً الثروة العربية في مكتبة الامة بباريس

لم يكن سعي ملوك فرنسا باقل من مساعي بابوات رومة لاحراز كنوز المخطوطات الشرقية . فانهم انشأوا لهـا فرعاً في خزائن قصورهم ومكتبات عاصمتهم . ولتجهيز ذلك الفرع اوفدوا بعثات علمية الى الامصار العربية وغيرها في الحصول عـلى تحف المخطوطات المكنوزة في المساجد والديورة والمدارس والكنائس . هكذا اصبحت « مكتبة الامة » في باريس من اعظم مكتبات الدنيا واهمها بندرة كتبها ووفرة مخطوطاتها . ففيها الوف من فرائد المخطوطات والمطبوعات العربية الثمينة[2]

وقد تألفت عام ١٧٨٧ جمعية من علماء المشرقيات في فرنسا لنشر المخطوطات الشرقية المحفوظة في مكتبة الامة بباريس . وكانت باكورة اعمال رئيسها المستعرب دي غين De Guines ترجمة كتاب « مروج الذهب » للمسعودي الى اللغة الفرنسية[3]

---

(١) تاريخ فن الطباعة (المشرق : مجلد ٣ سنة ١٩٠٠ ص ٨١ – ٨٢)

(٢) غرائب الغرب : ج ١ ص ١٠٠

(٣) المستشرقون : ص ٧٥

٢ً مخطوطات الطبابة العربية في كلية الطب بباريس

اثبتنا في فصل سبق ان سجلات كلية الطب بباريس حوت عام ١٣٩٥ للميلاد اثني عشر مجلداً اشتملت على فهارس مؤلفات خطية لاطباء العرب . ولما كان لويس الحادي عشر ملك فرنسا (١٤٦١–١٤٨٣) كثير القلق على صحته احب ان تكون كتب « الرازي » الطبية في خزانة قصره . لانه كان شديد الثقة بطبّ العرب وذا اعتقاد راسخ بتفوّقهم على غيرهم في تلك الصناعة . ولم يكن من كتب الرازي حينئذٍ إلا نسخة وحيدة في مكتبة كلية الطب المشار اليها، فاستعارها الملك بشرط ان يردّها وفعل[1]

٣ً تفويض ملك فرنسا الى سفيره في المغرب الاقصى ابتياع مخطوطات عربية

اشتهر لويس الرابع عشر ملك فرنسا (١٦٤٣–١٧١٥) بتعزيز اللغة العربية اذ انشأ منبراً خاصاً لتعليمها في المدرسة الملكية . وانفذ رسلاً الى مختلف البلدان يفتشون عن مخطوطات في تلك اللغة وفي غيرها من اللغات الشرقية

واقدم ما سطره التاريخ عن البعثات الفرنسية العلمية الى الامصار العربية لهذا الهدف ان الملك لويس الرابع عشر نفسه كلّف سفيره دي مونسو De Monceaux ان يرتحل في مهمة خطيرة الى المغرب الاقصى فاوعز اليه بتاريخ ٣٠ ك ١ ١٦٦٧ ان ينقّب تنقيباً دقيقاً عن مخطوطات عربية وفارسية ويونانية وغيرها ويبتاعها له . وصرّح ان احد كبار السيّاح شاهد في الشرق مؤلفات تيتليف وابولونيوس وبرغاوس وديوفانت الاسكندري وغيرها مترجمة الى اللسان العربي . وأردف الملك تصريحه بقوله ان من تلك المخطوطات شيئاً كثيراً في خزائن جامع القرويين بمدينة فاس . وفوّض الملك الى رسوله مسيو دي مونسو ان يشتري له ١٧٠٠ قطعة من الجلود المراكشية Maroquin الكبيرة الحجم لانه يستطاع تجليد كتابين ضخمين بكل واحدة منها . وشرط عليه ان يكون لون الـ ٥٠٠ منها اخضر ولون الباقي ارجوانياً[2]

---

(١) مجلة « الرسالة » في القاهرة : سنة ٥ ص ٥٥٨ – ٥٦٠

(2) H. de Castries : *Histoire du Maroc* (Archives de France, I, p. 245).

٤ً وثيقة بمشترى مخطوطات لحساب لويس الرابع عشر محفوظة في دير الشير بلبنان

اطلعنا في مكتبة دير الشير بلبنان على حاشية اثبتها ابو النصر ابن ابي نوفل الخازن قنصل فرنسا في بيروت في مخطوطة عنوانها « وفيات الاعيان » لابن خلّكان قال : « باسم الله الحي الازلي وهو ثقتي ورجاءي واليه انيب . لما كان في تاريخ سنة ١٠٨٢ هـ (١٦٧١ م) ارسل حضرة عالي الجناب الملك لويس عطاالله سلطان فرنسا المعظم بين ملوك المسيحية الى جميع بلدان الاسلام لاجل عالِم افرنجي نمساوي من الحسكيّة اسمه ( ) لاجل مشترى كتب دواوين الشعراء وتواريخ وفي علم النحو والهندسة والفلك والطب . ومن جميع الكتب التي تنوجد قاطبة بجميع الالسن العربي واليوناني والسرياني والتركي والعبراني . وكتب له بذلك دفتر عدّة اسامي الكتب ووصّاه وأكّد عليه من غير المكتوبين معه في الدفتر مهما وُجد كتب يشتري باي ثمن كان . وكتب له اوامر شريفة الى جميع القناصل الفرنساوية الذين في جميع المملكات ان مهما احتاج وطلب منهم دراهم يعطوه ويعطيهم بها المرشال المذكور تمسكات . وتوجّه من مدينة باريس وصل الى قبرص اشتره (اشترى) مقدار ماية وثمانين كتاب . ومنها اتجه الى الشام واشتره جانب كتب . ومنها توجّه الى بلاد مصر حتى يدور مدنها كلهم ويشتري منهم . وبعده بيعاود الى دير طورسين وبيشتري . ومنها بيفوت الى اسلان بول (اسطنبول) وجميع المدن الذي في يد العثملية . ومنها بيفوت لبغداد وبلاد العجم . وهذه اسامي الكتب الذي مكتوبين معه في الدفتر المذكور . وانا الفقير الى الله سبحانه وتعالى ابا النصر بن نادر بن خازن بن ابرهيم بن سركيس الخازن لمّا قريت (قرأت) هذه الدفتر نصخت (نسخت) في هذا المجموع . . . »

٥ً بعثة ثالثة وجهها لويس الرابع عشر الى فاس للتنقيب عن مخطوطات عربية

في ٣ حزيران ١٦٨٢ كتب الملك لويس الرابع عشر الى موسيو « سنت امان » سفيره لدى سلطان المغرب الاقصى انه سمع بوجود كميات عظيمة من الكتب الخطية في فاس . ولاجل ذلك اوفد اليه بعض اهل المعرفة والخبرة للاطلاع عليها والتثبت في مضامينها واوعز اليه ان يسهّل مهمتهم طبقاً للاوامر الملكية[1] .

(1) H. de Castries : *Histoire du Maroc* (Archives de France, I. p. 222.)

واقتفى فريق من الفرنسيس آثار ملكهم لويس الموما اليه في اقتناء الكتب العربية مطبوعة ومخطوطة

نشاط الانكليز الى تجريد مكتباتهم بمخطوطات عربية

١ً ابتياع المستر تاتام مخطوطات بما يعادل ثقلها ذهباً

نافست دولة بريطانيا العظمى بابوات رومة وملوك فرنسا في ارسال الوفود الى الشرق لاحراز عتائق المخطوطات ونوادرها . واشتهرت خصوصاً بعثة المستر تاتام الانكليزية التي ابتاعت عام ١٨٤٢ اثمن ما حوته اديار مصر من تلك العتائق النفيسة وكان بينها ٣٠٠ مخطوطة بنيف على رقّ غزال . ومنها ما ابتاعته البعثة المذكورة بما يعادل ثقله ذهباً كما ألمعنا الى ذلك في بحثنا عن « مكتبات اديار مصر »

٢ً الثروة العربية في مكتبات انكلترا وبدائع مجاميعها في المتحف البريطاني

احتذى المبشرون البروتستان الانكليز حذو المبشرين الكاثوليك فحصّلوا عدداً عظيماً من المخطوطات المحفوظة لعهدنا هذا في اشهر مكتبات بلادهم ومن تعهّد مكتبات لندن واكسفرد وكمبردج ومنشستر وبرمنغام وغيرها تجلّى له صدق هذا القول . ولا غرابة في ذلك لان دار الكتب البريطانية (المتحف البريطاني) التي تأسست عام ١٧٥٣ تُعدّ آية الآيات بين رصيفاتها بل موضوع اعجاب العلماء قاطبة . فان مجموعة المخطوطات العربية فيها تحصى بالالوف . وهي تعتبر بعد مكتبات القاهرة والاستانة في الدرجة الاولى لما احتوته خزائنها من بدائع المجاميع الخطية واغلاها ثمناً واقدمها عهداً

وغير خافٍ ان ارتفاع قبّة هذه المكتبة يعادل ارتفاع قبة البنثيون Panthéon في باريس . ويجلس تحت تلك القبة ٦٠٠ مطالع بالراحة دون ان يُزعج احدهم الآخر[1]

---

(١) غرائب الغرب : ج ٢ ص ٥٩

انحاف السريان مكتبات الواتيكان وفلورنسا بمخطوطات شرقية[1]

١ً هدية الجاثليق يهب آلاها الثالث

مثلما اشتغل علماء الموارنة في نقل مخطوطات شرقية الى مكتبات اوربا ولاسيما الى رومة وباريس هكذا أتحف أيمة السريان تلك المكتبات بطائفة من المخطوطات جليلة وثمينة . واقدم من رواه التاريخ من هذا القبيل هو الجاثليق يهب آلاها الثالث (١٢٨١ — ١٣١٧) الذي سيّر إلى الحبر الروماني كتباً ثمينة وهدايا نفيسة وتحفاً لائقة[2]

وكان ذلك على يد العلّامة السرياني صوما الشهير الذي وجهه ارغون ملك التتر (١٢٨٤ — ١٢٩٠م) في وفد من ارباب الدين والدنيا الى بابا رومة وملوك اوروبا لابرام عهود الاتفاق معهم[3] .

٢ً هدية البطريرك اغناطيوس نعمة الله الاول

لما ارتحل البطريرك اغناطيوس نعمةالله الاول (١٥٥٧ — ١٥٩٠) الى رومة على اثر تنزله عن السدة البطريركية عام ١٥٧٦ حمل معه طائفة من المخطوطات القديمة . ثم سعى لاستحضار غيرها من بلاد المشرق فنقل اليه المطران موسى والشماس عبد النور ما توفقا الى جمعه من الذخائر الكتابية . فما كان من البطريرك نعمةالله إلا ان اهدى كل ما اجتمع لديه من المخطوطات الى المكتبة الواتيكانية والى مكتبة فلورنسا

---

(١) وقع في المقالة السابقة ص ٢٨٦ من عدد ايلول وتشرين الاول من المسرة خطأ مطبعي تثبت هنا اصلاحه وهو (خانو) والصحيح (فانو)

(٢) سيرة يهب آلاها : طبعة بيجان سنة ١٨٩٥ ص ٤٩

(٣) الحروب الصليبية في الآثار السريانية : ص ٢٣٣

ومما يؤثر عن البطريرك نعمةالله أنه ساعد البابا غريغوريوس الثالث عشر في تصحيح الحساب اليولي[1] . وقد تم استبدال هذا الحساب نهائياً في ١٥ تشرين الاول سنة ١٥٨٢ بالحساب الغريغوري الذي اعتمدته اغلب شعوب الارض شرقاً وغرباً

٣ هدية احبار السريان على يد ليونرد هابيل القاصد البابوي

في السنة ١٥٨٣ أنفذ البابا غريغوريوس الثالث عشر الى بلاد المشرق قاصداً رسولياً خبيراً باللغة العربية يسمى ليونرد هابيل . ولدى وصوله الى حلب أخذ يفاوض أحبار الملّة السريانية وأعيانها في المهمة التي جاء لاجلها . وقد عرض عليهم حين ذاك ان يرسلوا شباناً إلى رومة ليتكملوا بالعلوم . وحثهم على انتقاء افضل ما عندهم من الكتب العلمية والطقسية لاجل طبعها وتعميم فوائدها . فجمع على يدهم كمية من المخطوطات وعاد بها الى رومة[2]

٤ هدية المطران طيمثاوس كرنوك والمطران اثناسيوس سفر والمفريان اسحق جبير

يؤثر عن المطران طيمثاوس كرنوك السرياني († ١٧٢٤) انه جمع عدداً وافراً من المخطوطات المهمة سريانية وعربية واعتنى بنسخ كتب اخرى ثم اهداها باجمعها الى المكتبة الواتيكانية[3]

وفي السنة ١٧٥٣ بيع دير السريان الذي شيدوه قديماً في أكمة اسكولينو برومة[4] وكان يحتوي على خزانة مخطوطات عامرة جمعها مؤسسه السيد اثناسيوس سفر العطّار († ١٧٢٨) في اثناء رحلاته الى الاصقاع الارمنية والتركية والفارسية والهندية والاوروبية والاميركية[5] . ونسخ واستنسخ كتباً عربية

---

(١) مجلة « الشرق المسيحي » الفرنسية في باريس : سنة ١٨٩٨ ص ٢٠٩

(٢) مجلة الشرق المسيحي سنة ١٨٩٨ ص ٢٠١ – ٢١٦

(٣) السلاسل التاريخية : ص ٣٢

(٤) معجم مرلوني Morloni مجلد ٢٦ ص ١٢٦ عمود ٢

(٥) السلاسل التاريخية : ص ٣٢ – ٣٨

وسريانية اهدى منها قسماً الى المكتبة الواتيكانية[1]. وأضاف الى خزانة ديره المشار اليه ما وقفه العلّامة المفريان باسيليوس اسحق جبير († ١٧٢١) من المخطوطات والمطبوعات. وقد ضمّت تلك الكتب برمتها بعد بيع الدير الى المكتبة الواتيكانية

٥ً اشتغال انطون طرّازي في المكتبة الواتيكانية وهدية حفيده فيليب

ارتحل المقدسي انطون طرّازي (١٧٨٩ — ١٨٥٥) الى رومة عام ١٨٢٩ فكلّفه البابا بيوس الثامن ببعض اشغال في المكتبة الواتيكانية. فقام انطون بتلك المهمة خير قيام لانه كان ذا اطلاع واسع في العلوم الشرقية ومتضلّعاً من اللغات العربية والسريانية والايطالية. واشتغل خصوصاً بقسم المخطوطات فصرح بزايا كلٍّ منها ورتّبها في امكنتها ترتيباً علمياً. ولاجل ذلك يقرأ في احد سجلّات المكتبة اسم انطون طرازي بين رجال الفضل الذين حفظ هذا المعهد الكتابي ذكراً طيّباً لخدمهم المشكورة[2]. وقد اتحف تلك المكتبة العامرة حفيده فيليب واضع هذا التأليف بطائفة صالحة من المخطوطات والمطبوعات في اوقات مختلفة

٦ً هدية الخورفسقفس يوسف داود الموصلي

بتاريخ ٣٠ ايلول ١٨٦٧ أنفذ الكردينال اسكندر برنابو رئيس مجمع نشر الايمان في رومة رسالة الى العلامة الخوري يوسف داود[3] موعزاً إليه ان يجمع كل ما يتيسر له جمعه ويستنسخ ما يستحسن استنساخه من الكتب المخطوطة في شتى اللغات. فبذل الخوري يوسف وسعه في ذلك حتى حصّل عدداً وافراً من تلك الذخائر العلمية النادرة الوجود. وفي ١٣ حزيران ١٨٦٩ ارتحل الخوري يوسف داود الى رومة ونقل معه صناديق عديدة مشحونة بالمخطوطات وجعلها في مكتبة نشر الايمان[4]

---

(١) اخبار رحلة فرنسيس بيكة الى ارمينية والعجم، للخوري اسحق ارملة : ص ٧٥

(٢) الحلل الطرازية في الاسرة الطرازية : بقلم الخورفسقفس اسحق ارملة : ج ١ ص ٤١

(٣) ارتقى الى كرسي مطرانية دمشق في ٢٣ نيسان سنة ١٨٧٩ باسم اقليميس يوسف داود

(٤) كتاب « القلادة النفيسة في فقيد العلم والكنيسة » تأليف فيليب دي طرازي ص ١٣

ولما حرر المطران اقليميس يوسف داود صك وصيته الاخيرة بتاريخ ١٢ ك١ سنة ١٨٨٩ اوصى بطائفة معتبرة من مخطوطات مكتبته لخزانة كتب مدرسة نشر الايمان المشار إليها. ذلك اعترافاً بجميل هذه المدرسة التي ارضعته افاويق المعارف. ويقال ان جميع تلك المخطوطات اصبحت في حوزة المكتبة الواتيكانية في الوقت الحاضر

٧ً هدية دير الشرفة

في السنة ١٨٨٠ وافى الى لبنان الاب اوغسطين شياسكا[1] وتعهد مدرسة الشرفة البطريركية بلبنان ومكتبتها. ونقل منها الى رومة كتباً نفيسة قديمة يرتقي عهد بعضها الى القرنين الحادي عشر والرابع عشر[2]

٨ً هدية الكردينال تبوني بطريرك السريان الانطاكي

بعد ارتقاء البطريرك اغناطيوس جبرائيل الاول تبوني الى السدة الانطاكية عام ١٩٢٩ ارتحل الى عاصمة الكثلكة قياماً بالفروض التقليدية لخليفة مار بطرس. فانتقى حينذاك اغلى ما كان في خزانته الخاصة من المخطوطات القديمة واهداها الى البابا بيوس الحادي عشر (١٩٢٢–١٩٣٩) لتضم الى المكتبة الواتيكانية التي كان يديرها هذا البابا قبل انتخابه حبراً اعظم

وعلى أثر توجيه الكرامة الكردينالية الى البطريرك المشار إليه جمع ايضاً طائفة معتبرة من المخطوطات السريانية والعربية والفارسية والتركية يناهز عددها مائة وخمسة عشر مخطوطاً بينها كتب منسوخة على رق الغزال يرتقي عهدها الى القرن العاشر للميلاد. ولما سافر الكردينال البطريرك في السنة ١٩٣٧ الى عاصمة الكثلكة نقلها معه فأضيفت الى هديته السابقة في المكتبة الواتيكانية. هكذا اغتنت تلك المكتبة الشهيرة بكنز جديد قدمته الكنيسة السريانية على يد بطريركها الكردينال لرأس الكنيسة الكاثوليكية[3]

---

(١) صار كردينالاً في السنة ١٨٨٢

(٢) طالع مخطوط «التحفة في تاريخ الشرفة» لكاتب هذه السطور ص ٦١ و ٦٦، وكتاب «الطرفة في مخطوطات دير الشرفة»: المقدمة ص ٥–٦

(٣) جريدة «صوت الاحرار» في بيروت بتاريخ ١٩ ت٢ سنة ١٩٣٧

وفي السنة التابعة ارتحل الكردينال البطريرك نفسه الى رومة واتحف المكتبة الواتيكانية ايضاً بطائفة من المخطوطات العتيقة لا تقل اعتباراً وقيمة وعدداً عن المخطوطات التي اهداها اليها سابقاً[1]

٩ً هدية قورلس جرجس دلّال مطران الموصل

اقتنى آثار من نوّهنا بذكرهم من مشاهير السريان متروبوليت الموصل السيد قورلس جرجس دلّال . فانه اتحف المكتبة الواتيكانية عام ١٩٣٨ بعدد صالح من نفائس المخطوطات ونوادرها نذكر منها : كتاب « الديدسقاليا » اي تعليم الرسل مكتوبة على رقّ الغزال ويرتقي عهدها الى القرن الثامن للميلاد ، ومما اهداه ايضاً مطران الموصل الى الخزانة الفاتيكانية انجيل ضخم كُتب في القرن الثالث عشر للميلاد يبلغ طوله ٦٠ سنتيمتراً وهو مزدان بصور مستبدعة ملوّنة يزيد عددها على الخمسين صورة . ومما يلفت الابصار ان جميع فصول الاناجيل التي تقرأ في الاعياد الممتازة مدوّنة في هـذا الكتاب الفريد بحروف ذهبية وملوّنة . وقد صرّح العارفون بالمخطوطات القديمة انّ لهذه التحف الكتابية قيمة اثريّة كبرى فضلاً عن قيمتها الماديّة

١٠ً هدية مار يوسف عمانوئيل الثاني بطريرك بابل

في السنة ١٩٢٩ يمّم رومـة السيد يوسف عمانوئيل الثاني بطريرك بابل الكلداني ليهنئ البابا بيوس الحادي عشر (١٩٢٢–١٩٣٩) بيوبيله الكهنوتي الذهبي . فاغتنم تلك الفرصة وأهدى الى قداسة الحـبر الروماني انجيلاً ثميناً مكتوباً على رق الغزال سُرّ به الحبر الاعظم سروراً جزيلاً[2]

---

(١) جريدة « البيرق » في بيروت : عدد ٢٣٦٦ في ١٩ ايار ١٩٣٨

(٢) مجلة « النجم » في الموصل : مجلد ١ سنة ١٩٢٩ ص ٥٧٦

نقل المخطوطات من بلاد الشام الى اوربا

١ً تأسف العلامة محمد كرد علي على مخطوطات دمشق

للسيد محمد كرد علي بحث قيّم في المخطوطات التي نقلت من الشام الى اوربا نورده بنصه قال[1] :

« من المصائب التي اصيبت بها الكتب ان بعض دول اوربا ومنها فرنسا وحكومات جرمانيا وبريطانيا العظمى وهولاندة وروسيا اخذت تجمع منذ القرن السابع عشر كتباً تبتاعها من الشام بواسطة وكلائها وقناصلها والاساقفة والمبشرين من رجال الدين . وكان القوم ولاسيما بعض من اتّسموا بشعار الدين ومن كان يرجع اليهم امر المدارس والجوامع بلغ بهم الجهل والزهد في الفضائل ان يفضلوا درهماً على انفس كتاب فخانوا الامانة واستحلوا بيع ما تحت ايديهم او سرقة ما عند غيرهم والتصرّف فيه كأنه ملكهم

« حدثني الثقة ان احد سماسرة الكتب في القرن الماضي كان يغشى منازل بعض ارباب العمائم في دمشق . ويختلف الى متولّي خزائن الكتب في المدارس والجوامع، فيبتاع منها ما طاب له من الكتب المخطوطة بأثمان زهيدة وكان يبيعها على الأغلب وأكثرها في غير علوم الفقه والحديث من قنصل بروسيا اذ ذاك بما يساوي ثمن ورقها ابيض . وبقي هذا سنين يبتاع الاسفار المخطوطة من اطراف الشام فاجتمع له منها خزانة مهمة رحل بها الى بلاده . فاخذتها حكومته منه وكافأته عليها . والغالب ان معظم الكتب العربية المحفوظة في خزانة الامة في برلين هي من بلاد الشام . وفهرس هذه الخزانة من الكتب العربية فقط في عشرة مجلدات ضخمة ما عدا الملحق . وتكوّن فهارس الكتب العربية في خزائن الغرب اليوم خزانة برأسها . وانّ بعيداً يُحسن القيام على هذا التراث

---

(١) خطط الشام : جزء ٦، ص ١٩٨ – ١٩٩

الوافر لأحرى بـه من قريب يبدّده جزافاً . وان امماً عرفتنا اكثر مما عرفنا انفسنا، حتى قال احد علمائهم ان العرب وضعوا من المصنفات ما لا يستطيع احدنا ان يقرأه طول عمره، لجديرون بارث الشرق في مادّياته ومعنوياته كما قلنا من فصل في مجلة المقتطف منذ اربع وعشرين سنة . نعم ان كتباً تترك للأرضة تعبث فيها والعفن يعبث بجمال جسمها ورسمها وتحرم النور ويعني اثرها الغبار والاوساخ، ويُحرم النظر فيها على من يحسن الاستفادة منهـا او تفضّل عليها دريهمات معدودة حرية بان تكون في ملك من يستفيد منها ويفيد»

٢ً سماسرة الافرنج والمخطوطات العربية

عرفنا فريقاً من سماسرة الافرنج الذين ابتاعوا كميّات وافرة من مخطوطات بلاد الشام وبعثوا بها الى غلاة الكتب في اوربا . نذكر منهم ادمون دوريفلو في صيدا وهنري داريكارير مدير فندق السيّاح ببيروت في عهد مضى . وكان هذا الاخير خبيراً بالخط الكوفي على اختلاف اشكاله يقرأه بسهولة وسرعة كأمهر علماء الاستشراق

وممن لم يزل في قيد الحياة من عشّاق المخطوطات الشرقية وسماسرتهـا بين الافرنج مسيو لپين Lépine الفرنسي النحلة . فقد اعتاد هذا الرحّالة ان يختلف الى الامصار العربية عاماً بعد عام للتنقيب عن مخطوطات نفيسة ونادرة فيشتريها بأغلى الاسعار . ثم يعود بعد كلّ رحلة الى بلاده حاملاً ما لا يحصى من التحف الكتابية

٣ً غليوم الثاني عاهل المانيا ومخطوطات الجامع الاموي

ثم اردف السيد محمد كرد علي قوله بقوله[1]: «ومن الخزائن المشهورة التي بُعثرت في عهدنا ولم نعرف متى جُمعت هي خزانة صحن الجامع الاموي بدمشق . وكانت مملوءة برقوق نفيسة . ففتحت سنة ١٣١٧ هـ (الموافقة للسنة ١٨٩٩ ميلادية) بأمر السلطان عبد الحميد الثاني إجابة لمقترح الامبراطور غليوم الثاني (١٨٨٨–١٩٤١)

(١) خطط الشام : جزء ٦، ص ١٩٩–٢٠٠

الالماني(١) فعثروا فيها على قطع من الرقوق كتبت فيها سُور من القرآن الكريم بالخط الكوفي . ومنها قطع مهمة من مصاحف وربعات وقطع من الأشعار المقدسة بالآرامية الفلسطينية . وكتابات دينية وادبيات دينيـة وقصص رهبانية ومزامير عربيـة مكتوبة بالحرف اليوناني . ومقاطيع شعرية لأوميرس . وكراريس واوراق بالقبطية والكرجية والارمنية في موضوعات دينية الا قليلاً . وجذاذات عبرانية وسامريّة فيها نسخ من التوراة وتقاويم اعياد السامريـين . وصلوات وصكوك للبيع والاوقاف وعهـود زواج . وبينها مقاطيع لاتينية وافرنسية قديمة وقصائد شعرية يرتقي عهدها الى ايام الصليبيين . ونسخ انجيل برقوق . فأهدى السلطان معظمها لعاهل المانيا . ووزع قسم منها على بعض رجال الاستانة ورجال دمشق . واستخلصت بعض قطع منها حُفظت الآن في دار الآثار في هذه المدينة . واهمها تلك القطعة الكوفية المكتوبة عـلى رقّ من ربعة شريفة وقفها عبد المنعم بن احمد سنة ٢٩٨ هـ وعلى الوجه الثاني نقشٌ مذهّب باسم واقفها . ورأى شيخنا الامام طاهر الجزائري في تلك القبة جزءا مكتوباً عليه انه حُبس على مشهد زين العابدين صلوات الله عليه وعلى ابنائه الايمة سنة نيف وسبعين واربعمائة »

معارض المخطوطات النفيسة في مكتبات اوربا

١ً – معارض مكتبات باريس ولندن وبرلين وفينا

اعتاد الغربيون ان يقيموا حيناً بعد آخر معارض عامّة او خاصة، يدبّجونها بكل ما استنبطوه من الاختراعات وما تفرّدوا به من الصناعات . فتفنّنوا في ذلك تفنّناً عجيباً حمل القريب والبعيد على ارتياد تلك المعارض، والتمتع بمشاهدة غرائبها فأصبحت اقوى ذريعة لانعاش بلدانهم وترويج اسواقهم ودرّ الخيرات الوافرة عليهم . وما عدا المعارض الصناعية والفنيّة فإن الغربيين برّزوا ايضاً في إنشاء معارض رائعة زيّنوها بما احرزوه من الآثار النفيسة والكنوز الثمينة

واذا حصرنا البحث في معارض دور الكتب دون سواها وجدنا بعضها يُقام

---

(١) جرى هذا الاقتراح عندما زار غليوم العاهل الالماني صديقه عبد الحميد في الاستانة . ذلك على اثر رحلته الى فلسطين وسوريا في خريف السنة ١٨٩٩

في مواسم خاصة او في ايام محدودة حولاً بعد حول . ورأينا البعض الآخر تُفتح ابوابه لزيارة الخاصّ والعامّ في ساعات معدودة من كل يوم على مدار السنة . وقد يؤمّ تلك المعارض نظراً الى خطورتها فريق من الملوك ورؤساء الحكومات وعلماء المشرقيات فضلًا عن روّاد الآداب الرفيعة

وليست المعارض المذكورة إلّا وسيلة للتنافس بين الدول فتعرض كلٌّ منها أبدع ما لديها من التُحف الكتابية لتباهي بها سائر زميلاتها . لأن الدولة الواحدة تملك مثلًا من تلك الذخائر الغابرة ما لا يملكه غيرها

أمّا اشهر دور الكتب التي تفرّغت في اوربّا لإقامة مثل هـذه المعارض فهي : دار الكتب الاهلية في باريس والمتحف البريطاني في لندن، ومكتبتا برلين وڤينا، والمكتبة الواتيكانية، وقد أُتيح لنـا ان شاهدنا معرضاً طريفاً أنشأته دار الكتب الاهلية في نيسان سنة ١٩٢٥ بباريس، استعرضت فيه اخر ما لديها من المخطوطات المدبّجة بالزخارف والتصاوير في اللغات الشرقية كالعربية والسريانية والعبرانية والفارسية والتركية والحبشية والقبطية . وجرى افتتاح ذلك المعرض رسمياً برئاسة السيد غستون دومرغ رئيس الجمهورية الفرنسية . فانتدَبْنا ادارة المكتبة لشرح للرئيس المشار اليه ولأقطاب دولته محتويات المعرض ومزايا مخطوطاته العربية ونلخّص لهم لمحة من تراجم مؤلّفيها . فنهضنا بتلـك الخدمة الادبيّة محبورين مغتبطين

وفي سادس ايار ١٩٣٢ افتُتح في باريس عينها معرض للكتب التي صنّفها المحاربون القدماء حضره السيد پول دومير رئيس الجمهورية الفرنسية . لكنّ رونق ذلك الاحتفال تشوّه بمصرع الرئيس المشار اليه اذ اطلق عليه الطبيب الروسي پول جورجولوف رصاص مسدّسه فأرداه قتيلًا في باحة المعرض[1]

واعظم معرض للمخطوطات الاسلامية أُنشئ في المتحف البريطاني بلندن سنة ١٩٣٤ بإدارة المستر تشستربيتي . فكان موضوع اعجاب الجميع لاحتوائه عـلى رقوق نادرة وخطوط غريبة الاشكال ومصاحف كُتبت في عصور مختلفة ومصنّفات ذات قيمة تاريخية . وشوهد بين تلك الكنوز مخطوطات اقتناها المتحف

(١) مجلة « المصوّر » في القاهرة : شهر ايار ١٩٣٢

البريطاني بما يؤازي ثقلها ذهباً . ومما برهن على خطورة ذلك المعرض ان الملك جورج الخامس والملكة ماري زوجته شرّفاه بزيارتها الملكية

٢ً – معرض المكتبة الواتيكانية

لا يخفى ان في المكتبة الواتيكانية برومة معرضاً مدهشاً يشتمل على خرائد وفرائد لا قرين لها في سائر المكتبات الكبرى . ثم ضُمّت اليه أهمّ التُحف التي أُهديت عام ١٨٨٧ الى البابا لاون الثالث عشر في يوبيله الكهنوتي الذهبيّ . وقد زرناه مرّتين عام ١٩٠٠ وعام ١٩٢٢ فلفتَ نظرنا كثير من ذخائره نذكر منها : كتاب « رتبة القداس » مرصّع بالجواهر الغوالي أهداه الى البابا المشار اليه امبراطور النمسا فرنسيس يوسف الاول (١٨٤٨ – ١٩١٦)، ونسخة من التوراة مجلّدة تجليداً فاخراً وموشّاة باللآلئ النادرة قدّمها للبابا حاخام اليهود الاكبر في برلين . ومركع للصلاة مطعّم بالحجارة الكريمة قدّمته للحبر الاعظم اميرات مملكة اسبانيا وسيّداتها النبيلات

٣ً – معرض يوبيل المجمع العلمي الروسي

في السنة ١٩٢٥ احتفل المجمع العلمي الروسي باليوبيل القرني الثاني لتأسيسه . فكتب الى صاحب هذا المقال رسائل بريدية وبرقية يستدعيه رسمياً الى حضور المهرجانات العظيمة التي جرت لذلك في مدينتَي لينغراد وموسكو . وكان افتتاح تلك الحفلات الرائعة صباح سادس ايلول من السنة المذكورة . وقد بالغت حكومة روسيا في تكريم ضيوفها الوافدين اليها من اربعة اقطار المعمور وكلُّهم من جلّة العلماء وكبار حملة الاقلام . وانتهزت تلك الفرصة فأنشأت معرضاً للكتب القديمة ضمّ ما لا يُحصى من المخطوطات العربية . وغير خافٍ ان مكتبات لينغراد حافلة بنفائس الآثار وفيها الشيء الكثير من تلك الذخائر القديمة . وأهم المخطوطات المذكورة محفوظ بكل حرص في ثلاث مكتبات وهي : المكتبة العمومية ومكتبة الكلية ومكتبة المتحف الاسيوي[1] . وفي المكتبة العمومية المذكورة

---

(١) المشرق : مجلد ٢٣ سنة ١٩٢٥ ص ٦٧٣ – ٦٧٤

نسخة قديمة من رسائل بولس الرسول تحت رقم ٣٢٧ كتبت عام ٨٩٢ للميلاد على رقّ غزال . وهي من اقدم المخطوطات التي كُتب عليها تاريخ نساختها[1]

٤ – معارض مكتبات القسطنطينية والقاهرة وبيروت

كان للخليفة عبد الحميد الثاني السلطان العثماني (١٨٧٦ – ١٩٠٩) شغف عظيم بالمخطوطات القديمة الجميلة . حشد منها طائفة صالحة في خزائن « يلدز » قصره في الاستانة وكان يتباهى بها امام الملوك والعظماء الذين يزورونه اكثر من تباهيه بما خلّفه السلاطين اسلافه من التحف والجواهر . وبعد خلعه يمّم بيروت بعض اولاده وحفدائه وباعوا بها طُرَفاً شتى التقطوها من بلاط السلطان الخليع . فاقتنى مؤلف هذا المقال اخر ما استحضروه معهم من المخطوطات واندرها

على ان الشرقيين اخذوا بتوالي الازمان يقلدون الغربيين في معارضهم الكتابية . وكان المجلّي في هذا المضمار اولياء دار الكتب المصرية . فانهم افسحوا فيها بعض الخزائن لعرض اثمن ما لديهم من المصاحف والمخطوطات القديمة النادرة . وانتهج المتحف القبطي في القاهرة نهج دار الكتب المصرية فخصّص بالكتب القبطية النفيسة دائرة تلفت انظار الزائرين بزخارف محتوياتها وقدامة عهدها

ولمّا جرى افتتاح دار الكتب اللبنانية رسمياً في بيروت بتاريخ ٧ حزيران ١٩٣٧ رأى أمينها مؤلف هذا المقال ان يكون لها شأنها ومقامها بين زميلاتها المشار اليها . فانشأ فيها معرضاً ممتازاً اشتمل على ما حوته خزائن تلك الدار وما حوته خزائنه الخاصة من عتائق الرقوق وبدائع المخطوطات وروائع الخرائط والمصوّرات . واصبح ذلك المعرض الكتابي اول معرض من نوعه في هذه الديار الشرقية

---

(١) المشرق : مجلد ٢٣ سنة ١٩٢٥ ص ٦٨٥

الاسكوريال في اسبانيا

١ً - دير الاسكوريال ومكتبته

الاسكوريال اسم لدير عظيم شُيّد سنة ١٥٦٧ على بعد خمسين كيلومتراً من مَجْريط[١] بامر الملك فيليب الثاني (١٥٦٢–١٥٨٤) وفيه دُفن . وقد طالعنا وصفاً لهذا الدير ومكتبته جديراً بالاعتبار بقلم السيد محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي في دمشق قال[٢] :

« واهم ما يلفت النظر في هذا الدير دار كتبه وفيها ٤٥ الفاً من المجلدات حوت كثيراً من المخطوطات والنقوش والرسوم . ومنها الكتاب المقدس الذي كان يقرأ فيه بعض ملوك اسبانيا في القرون الوسطى وبعضها كتب باللاتينية، ومنها ما كتب بالاسبانيولية او اليونانية ومنها المزيّن باجمل الرسوم، ومنها المذهّب المكتوب على رقّ . ويهمنا من هذه المكتبة مجموعة الكتب العربية وهي الفا مجلّد كانت السفن الاسبانية غنمتها من مركب لاحد ملوك مراكش المتأخرين . وكان في هذا الدير قبل القرن السابع عشر نحو ثلاثة آلاف مخطوط عربي فالتهمتها النار في الحريق الذي نشب في الدير[٣] مع ما التهمت من الكتب الاخرى

---

(١) هو الاسم الذي اطلقه العرب على مدينة مدريد عاصمة اسبانيا

(٢) كتاب غابر الاندلس وحاضرها ص ٩٨

(٣) تسبّب هذا الحريق عن صاعقة انقضت على الاسكوريال فاحرقت اكثر من الفي مجلد من مخطوطاته العربية . وحدث ذلك عام ١٦٧١ وليس قبل القرن السابع عشر كما افاد البحاثة شارل غرو Charles Graux, *Essai sur les origines du fond grec de l'Escurial*, p. 319.

٢ً – مصدر مخطوطات الاسكوريال

روى السيد محمد كرد علي عن مصدر مخطوطات الاسكوريال قال[1] :

« فليست الكتب العربية في خزانة الاسكوريال اسبانية المصدر كلها[2] كما أكّد لنا احد علماء الاسبان . وصاحب البيت ادرى بالذي فيه . أخبرني ان الاسبان غنموا هذه الكتب من سفينة كانت لاحد سلاطين المغرب الاقصى[3] . فوقعت في ايدي الاسبان . وقال آخر ان اصل هذه المجموعة كان لاحد سفراء اسبانيا لدى الباب العالي . ولما غادر الاستانة اهداها لمليكه فوضعها هـذا في الدير الذي كان ملكاً له ولآله من بعده . والرواية الاولى أصحّ »

٣ً – وصف مكتبة الاسكوريال واحتراق قسم منها

طالعنا وصفاً لهذه المكتبة في مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق نورده بنصه :[4]

« في دار كتب الاسكوريال في اسبانيا جملة قيّمة من المخطوطات العربية يبلغ عددها الني مجلد . جمع نواتها الملك فيليب الثاني من انقاض المكتبات الاندلسية الاسلامية القديمة . ثم اضـاف اليها الملك فيليب الثالث في القرن السابع عشر عدداً عظيماً من المخطوطات العربية كانت تتألف منه خزانة كتب مولاي زيدان احد السلاطين المراكشيين من السلالة السعدية . اما كيفية انتقال هذه الكتب من مراكش الى اسبانيا فجديرة بالذكر لما فيها من ذكرى وعبرة

« قال ليڤي بروڤنسال في مقدمة المجلّد الثالث من هذه القائمة ما خلاصته : خرج على مولاي زيدان في عام ١٦١٢ ابو محلي واستفحل امره وقامت بينهما وقائع

---

(١) غابر الاندلس وحاضرها ص ٩٨

(٢) المراد بلفظتي « اسبانية المصدر » هنا ان تاريخ كتابة تلك المخطوطات يتصل عهده بايام عرب الاندلس في اسبانيا

(٣) هو مولى زيدان سلطان مراكش في اوائل القرن الحادي عشر للهجرة (تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان مجلد ٣ ص ١١٤)

(٤) مجلة المجمع العلمي العربي : مجلد ٩ سنة ١٩٢٩ ص ٢٥٢ – ٢٥٣

دامية دارت دائرتها على مولاي زيدان (١٠١٢-١٠٣٧ هـ، ١٦٠٣-١٦٢٨م) . فاضطُرَّ في شهر مايس من السنة المذكورة الى مغادرة قصره مع حاشيته والالتجاء الى سافي Safi وهو ثغر على الساحل المراكشي على ان يذهب منه الى السوس Sūs . فاستأجر من سافي مركباً بثلاثة آلاف دوق (٣٦ الف فرنك) الى أغادير وحمَّله جميع كنوزه وكتبه التي ورثها عن والده السلطان السعدي مولاي ابي العبَّاس احمد المنصور الذهبي . وعند وصوله الى اغادير أبى الربان واسمه جان فيليب كستلان ان يُفرغ محمول المركب قبل ان يتقاضى الاجرة بتمامها . واذ لم يتمكن مولاي زيدان من دفعها فوراً غادر الربَّان ليلًا ساحل أغادير الى مرسيليا فارًّا بمركبه وبما فيه من التحف والكنوز الثمينة. ولما بلغ ساله Salé التقى بثلاثة مراكب بقرصان اسبانيين فاستولوا عليه وذهبوا به الى اسبانيا غنيمة باردة . فامر الملك فيليب الثالث ان توضع الكتب في الاسكوريال وعددها نحو من ٤٠٠٠ مخطوط على ظهر الصفحة الاولى من كل منها عبارة تنصّ على ملكية السلاطين السعديين اياها. وفي ٧ حزيران عام ١٦٧١ حدث حريق عظيم في الاسكوريال التهم قسماً كبيراً من هذه الكتب ولم ينجُ منها سوى ألفَي مجلد . وهي الموجودة اليوم في تلك الخزانة التاريخية »

٤ – تعاقب عالمين شرقيين في ادارة مكتبة الاسكوريال

ظلَّت مكتبة الاسكوريال مجهولة حتى منتصف القرن الثامن عشر . فدفعت الحميَّة عالِمًا لبنانيًّا يدعى ميخائيل الغزيري الى السعي لدى فرديننذ السادس (١٧٤٦-١٧٥٩) ملك اسبانيا لتنظيم تلك المكتبة . فاجابه العاهل بالرضى والاستحسان واستدعاه اليه سنة ١٧٤٨ للنهوض بالمهمة المشار اليها . وما مرّ على الغزيري ثمانية اعوام حتى خوَّله الملك لقب « امين مكتبة الاسكوريال » وكلَّفه ان يضع فهرساً شاملًا لمخطوطاتها . ولما كان هذا المشروع يتطلب عناء جزيلًا وزمناً طويلًا كتب ميخائيل الغزيري الى صديقه بولس خضر اللبناني ان يوافيه من رومة ويساعده في تنظيم فهرس المكتبة فتعاونا كلاهما ودوّنا اسماء المخطوطات العربية

ووصفاها وصفاً دقيقاً في مجلّدين بقطع نصف . وقد صدر المجلدان ما بين سنتي ١٧٦٠ و١٧٧٠[1] بعنوان :

Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis

فكان لنشرهما فائدة عظمى لابناء الضاد . ولبث ميخائيل الغزيري اميناً لمكتبة الاسكوريال من السنة ١٧٥٦ الى السنة ١٧٩١ وهي سنة وفاته . فخلفه في منصبه عالم شرقي آخر يُدعى الياس شدياق تلقّى العلوم في مدرسة بروبغندا برومة وكان من المقربين في البلاط الملكي . وتولى الياس ادارة هذه المكتبة بامر الملك كرلس الرابع (١٧٨٨–١٨٠٨) الى ان حضرته المنيّة عام ١٨١٨

٥ً – فهارس المخطوطات العربية في الاسكوريال

لفهارس المخطوطات العربية في الاسكوريال وصف قام به المستشرق الفرنسي هرتفيك دي رنبورغ Hartvig Dérenbourg (١٨٤٤–١٩٠٨) ابن المستشرق جوزيف دي رنبورغ (١٨١١–١٨٥٩) . وقد نُصب هرتفيك استاذاً للعربية الفصحى في مدرسة اللغات الشرقية بباريس . ثم سمي عضواً في المجمع العلمي الفرنسي . وكان مغرماً كابيه باللغة العربية توّاقاً الى الوقوف على مخطوطاتها القديمة . فسأل وزارة المعارف العامة والفنون الجميلة بباريس ان ترخّص له السفر تحت رعايتها لدرس المخطوطات المحفوظة في اسبانيا . فقصد اولًا الى مجريط (مدريد) حيث اطلع فيها على مخطوطات خزائن المجمع العلمي التاريخي . ثم وجّه اهتمامه الى درس المخطوطات العربية في مكتبة الاسكوريال وانشأ لها فهرساً مدققاً يقع في مجلدين نشر اولهما سنة ١٨٨٤ في ٥٢٥ صفحة ما عدا المقدمة التي استغرقت صفحاتها ثلاثاً واربعين . ونشر ثانيهما سنة ١٩٠٣ في ١٠٨ صفحات حيث انتهى بالمخطوط ذي الرقم ٧٨٥ فقط . ثم فاجأ الموت هرتفيك دي رنبورغ فلم يُتمّ عمله

وفي عام ١٩٢٤ عُهد الى ليفي بروفنسال مدير جامعة الدروس المراكشية العليا

---

(١) مجلة « المنارة » في جونية : مجلد ٧ سنة ١٩٣٦ عدد ١ ص ٢٦–٢٧

في متابعة عمل هرتفيك واتمام قائمة المخطوطات العربية في الاسكوريال على ان يستعين بمذكرات العالم المتوفى هرتفيك وذلك بموافقة زوجته . فذهب ليفي بروفنسال الى الاسكوريال واقام فيه مدة طويلة . وفي عام ١٩٢٨ أخرج المجلد الثالث وهو الاخير من هذه القائمة . وأوله مخطوط رقمه ١٢٥٦ وآخره المخطوط ١٦٣٣، وهي تتعلق بالعلوم الدينية والجغرافية والتاريخية . اما القسم الباقي من المجلد الثاني واوله المخطوط ٧٨٥ الى المخطوط ١٢٥٥ ويختص بالطب والتاريخ والطبيعي والرياضيات والقضاء فانه لم ينشر بعد[1]

٦ً – تحف مكتبة الاسكوريال

اشتملت خزانة الاسكوريال على تحف كتابية لا اثر لها في سائر الخزائن شرقاً وغرباً . ففيها اشكال خطوط كوفية وقيروانية واندلسية ومزركشة وغيرها وفيها مصاحف مذهبة ومخطوطات مصوّرة او مزخرفة بشتى الالوان . وفيها جلود نفيسة وقماطر مطرّزة او مطعّمة بالميناء . وفيها ايضاً مخطوطات جُلّدت بأديم الافاعي وذلك من اندر انواع التجليد واغربها

٧ً – اخفاء نفائس الاسكوريال في اثناء الحرب الاهلية الاسبانية

لما نشبت الحرب الاهلية الاسبانية (١٩٣٦–١٩٣٨) نقلت الحكومة من دير الاسكوريال الى مجريط العاصمة جميع التحف الفنية والكتب الخطية والآثار القديمة النفيسة خوفاً عليها من التلف الذي قد تتعرّض له من جرّاء الحرائق والقنابل . ومن المعلوم ان عدة معارك طاحنة وقعت حول الاسكوريال وهو على مسافة قريبة من العاصمة المشار اليها . ولما اشتد الهجوم على مجريط وتساقطت عليها القنابل من كل صوب نقلت تلك الذخائر الثمينة الى بلنسية ريثما تنتهي المعامع المشؤومة ويعود الامن الى نصابه . فكان تصرّف حكومة مجريط في صيانة تلك الآثار القيمة مدعاة الى الثناء والطمأنينة[2]

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي : مجلد ٩ سنة ١٩٢٩ ص ٢٥٣–٢٥٦

(٢) مجلة « الرسالة » بالقاهرة : سنة ٤ ص ١٨١٥

المكتبة الامبروزيانية في ميلانو

١ – وصف رناج المكتبة

في مدينة ميلانو مكتبة عظيمة تأسست عام ١٦٠٩ بهمة مطرانها الكردينال فردريك بوروميو . ومن جملة كنوزها مخطوطات عربية ثمينة نادرة يحسدها عليها اكبر متاحف الشرق واوسع مكتبات الغرب . وقد زارها احد ادباء حلب فكتب عنها وصفاً يجدر اثباته هنا لبيان اعتناء اهل اوربا بالحرص على تراث الاقدمين قال[1] :

« تُعد مكتبة الامبروزيانا من ازهى المكتبات لدراسة الثقافة العربية في اوربا . يُدخل الى هذه المكتبة من باب استُكمِل فيه فنّ الهندسة من روعة وهيبة واناقة . وقد وُضع بجانبَي هذا الباب رمزان يحيّيان الزائر لدى دخوله وينبئانه عن البيئة ومشتملاتها . فالرمز الاول عبارة عن نخلة من النحاس تذكّر مناظر الشرق الفتّانة الساحرة وتدلّ على ان العادات العربية ما عشّت ان دخلت في هذه الربوع . وقد كُتب باللغة العربية على هذه النخلة بحروف بارزة تسترعي اهتمام الزائر عبارة الترحيب المعروفة وهي : « اهلًا وسهلًا » . وأمّا الرمز الثاني فهو عبارة عن ابيات شعرية للملك آخر يدوم الفارسي وهي :

الايام صحائف الاعمال فخلّدوها بأحسن الاعمال

٢ – اهتمام الكردينال بوروميو بالمخطوطات العربية القديمة

« يرجع عهد اهتمام مكتبة الامبروزيانا بالمباحث الشرقية الى القرن السادس عشر . وذلك عندما اخذ فردريك بوروميو يعنى بجمع خزائن الكتب العربية

---

(١) مجلة الرابطة العربية في القاهرة : المجلد ٦ الجزء ١٣٠ ص ٣١–٣٢

القديمة من الربوع الاسلامية الشاسعة الممتدة من بلاد فارس الى آسيا الصغرى ومن جزيرة العرب الى مصر وطرابلس الغرب والجزائر والمغرب الاقصى . فبلغ عدد ما جمع من الكتب الاسلامية القيّمة ١٤٠٠ مجلد يضمّ مصاحف قرآنية في غاية الاناقة كُتبت في عصور الاسلام المختلفة وفي الازمنة القريبة من عهد النبي ومن جملة هذه الكتب القيّمة تفسير البيضاوي وهو من أهم المؤلفات الاسلامية . وقد كان السفير العثماني رفعت بك يقصد مكتبة الامبروزيانا، حين زيارته ايطاليا ليرى ذلك الكتاب وكان يقول انه من اجمل واندر الكتب . ومن بينها ايضاً عدد لا يُستهان به من الموضوعات القضائية على المذهب الزيدي وغيرها من اصول القضاء والفقه على المذهب الشافعي والمالكي والحنفيّ والحنبلي

« ومعظم هذه المؤلفات يكوّن مجموعة ادبية تشريعية للمذهب الزيدي . وهي التي تشتمل على قسم عظيم من مصنفات جنوبي الجزيرة العربية . او بعبارة اخرى من المؤلفات اليمانية لاصحابها المشاهير كالامام القاسم والامام ابي طالب والامام علي بن حسين والغاني والكافي وابن حبيس الدواري والغزالي . فبين هذا المزيج من المؤلفات سجلّ طريف للمعاملات الجمركية اليومية في الحُدَيدة في شهر الحجّ ؛ كما توجد بين هذه المجموعة كتب عديدة في علم اللغة وفي العقائد والاحكام التعبُّدية . ومن بينها مجموعة نفيسة من حكم أرسطوطاليس وافلاطون ومائتان من اقوال منظومة لناظمها عليّ

« وان ندرت هذه المجموعة من المؤلّفات في علم الهيئة والفلك غير انها غنية في المؤلفات الطبية لاشهر اطباء العرب كابن سينا والمارغني الميموني وغيرها لجالينوس وابوقراط وافلاطون الحكيم . على ان هذه المجموعة تحتوي على كتب قيّمة واصلية في الادب وفي جغرافية جزيرة العرب وفي مباحث عن مناخ القسم الجنوبي منها وعن اصل اشتقاق اسماء البلدان في البلاد اليمانية وفي وصف العالم المعروف وقتئذٍ . ومن بينها كتاب نفيس جدًّا في تاريخ صنعاء عاصمة اليمن

« واغنى ما في مجموعة مكتبة الامبروزيانا من الكتب المطبوعة في عهد حداثة فنّ الطباعة او من المخطوطات هي الكتب التاريخية ودواوين الشعر ، ومن

بينها مؤلفات في تاريخ قبائل جزيرة العرب قبل الاسلام وبعض اساطير يمانيَّة عن الوثنية وكتب تبحث عن سيرة محمد . وعن مباحثات ومناظرات في الهيئات

« ومما يستحق الاشارة اليه من هـذه المَجموعة المؤلَّفات الفقهيَّة والدينية . غير ان الكتب الاساسية التي تحويها هذه المجموعة هي الكتب النحوية والمباحث اللغوية . ومن بينها عـدد كبير من المعاجم العربية التي استعان بها المستعرب الايطالي الشهير انطونيو جيجي . وهو من جهابذة مكتبة الامبروزيانا واول من ألَّف قاموساً عربياً في اوربا وذلك في مبادئ القرن السادس عشر . ويُعَدّ قاموسه هـذا من أثمن المعاجم حتى اليوم . وقد أُضيفت فيما بعد الى مجموعة الكتب التي جمعت على عهد بورومبو الآنف الذكر مؤلفات أُخرى في الحساب وفي علم التنجيم والاخلاق ومن ضمنها مؤلفات نفيسة لابن سينا والبخاري . كما أنها كانت مشتملة على مجموعات قانونية مكتوبة عـلى الورق بمداد لامع مختلف الالوان وهي تُعَدّ من اندر وانفس المصنَّفات، فكانت مجموعات القوانين هـذه والمخطوطات العربية للقرن السادس عشر نواةً صالحة لما وصلت اليـه فيما بعد مكتبة الامبروزيانا من توسيع نطاقها في المصنفات الاسلامية في مبادئ هذا العصر

« وهناك قسم ثانٍ من مجموعات القوانين العربية جمعته مكتبة الامبروزيانا في سنة ١٩٠٩ وهو يؤلِّف مجموعة عظيمة من المخطوطات يبلغ عددها ١٨٤٦ مخطوطاً كما يشتمل على سبعة آلاف مؤلَّف من اصل يمنيّ واسلامي محض . وبين هذه الكتب مؤلَّفات كثيرة في القرآن والسنَّة لاشهر المؤلفين كالبخاري والعسقلاني . كما ان بين تلك الكتب مؤلَّفات لا تقل قيمة عن الاولى في الالهيَّات عـلى ما يراه الاسماعيليون والزيديّون من اهـل الشيعة . ومؤلفات أُخرى في المذهب الملكي والمذهب البرهميّ وفي المذاهب اليهودية والاسلامية والمسيحية ومناظرات ادبية في الدفاع عن الزيدية

« اما في دواوين الشعر فاننا نجد مؤلفات للشعراء القدماء كامرئ القيس والبستي والبحتري والعريسي والمتنبي والبشكري . ومن شعراء اليمن المشهورين نجد العنيزي وجمال الدين والقاسم وقدام بن قديم ناظم تلك القصيدة المشهورة

التي تُعَدّ مثالًا صحيحاً للشعر الوطني في جنوب الجزيرة من حيث القومية والديانة

«ومن بين المؤلفات المتنوعة التي لها صبغة من الثقافة العربية الساحرة نجد قاموساً كبيراً للقهواري وبعض مؤلفات ثانوية في البلاغة والعروض والنثر . وأمّا وجوه مجموعات القوانين فهي على قدر عظيم من النفاسة والقيمة الفنّية من حيث خطوطها القديمة المختلفة الانواع من النسخي الى العماني الى المغربي الطرابلسي . فما عدا هاتين المجموعتين اللتين نوّهنا بهما آنفاً واللتين يكوّنان القسم الاساسي لمكتبة الامبروزيانا توجد مجموعات ثانوية أخرى من اصل كوفي او شمالي افريقي . ومجموع هذه الكتب كلها يكوّن ثروة عظيمة من الكتب العربية التي نفاخر بها الغرب »

٣ – مخطوطة اول كتاب فلكي نُقل عن اليونانية الى العربية

المع المستعرب الايطالي « كرلو نلّينو » استاذ التاريخ العربي والعلوم الفلكية في الجامعة المصرية الى مخطوط فريد من نوعه محفوظ في المكتبة الامبروزيانية . وينطوي هذا المخطوط على ترجمة كتاب « عرض مفتاح النجوم » المنسوب الى هرمس الحكيم المصري وموضوعه تحاويل سني العالم وما فيها من الاحكام النجومية . وهو اول كتاب نُقل من اليونانية الى العربية بقطع النظر عن كتب الكيميا [1]

٤ – ثروة المكتبة الامبروزيانية ومشاهير مديريها

تُعد مكتبة الامبروزيانا في عهدنا من اغنى مكتبات اوربا بوفرة مطبوعاتها النادرة ومخطوطاتها القديمة البالغة خمس مئة الف كتاب بنيّف . ويعود الفضل في تعزيزها الى مديرها الاب انطون تشرياني († ١٩٠٧) والى خلفه الاب اخيل راتي الذي اشتغل فيها مدة اثنتين وعشرين سنة (١٨٨٨–١٩١٠) فسعى لتحصيل مخطوطات قديمة زادت في ثروتها العلمية وتُحفها الفاخرة . واعتنى اعتناء خاصًّا بالمخطوطات الشرقية ولاسيما العربية . فاقتنى منها نحو ستة آلاف كتاب

(١) كتاب علم الفلك : بقلم كرلو نلينو ص ١٤٢

اتى بها بعض السيّاح من انحاء اليمن . وهي التي وصفها المستعرب الشهير السنيور غريفيني[1]

وبعد هـذا انتقل الاب راتي الى المكتبة الواتيكانية وتقلّب في الرتب البيعية حتى استوى على عرش البابوية باسم بيوس الحادي عشر (١٩٢٢–١٩٣٩)

(١) المشرق : مجلد ٢٠ سنة ١٩٢٢ ص ٣٢٤–٣٢٥

طرازى ،فيليب دى (الفيكونت)
اللغة العربية فى اوروبا
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01034928

492.7094
T178eA